نموذج متميز في لوحة غنية

يوسف حدّاد، المجتمع والتراث في فلسطين ـ قرية البصة،
نيقوسيا: مركز الابحاث ـ م.ت.ف.، ١٩٨٥، ٢٦٨ صفحة.

يبـدو الكتـاب الذي نحن بصدده تكملة لمشروع بدأه مركز الابحاث العام ١٩٧٣ باصدار كتاب «دراسـة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني ـ قرية ترمسعيا». فالكتابان يغطيان الموضوع ذاته؛ أولهما في احدى قرى الضفة الغربية، والثاني في الاراضي المحتلة منذ العام ١٩٤٨، وتحديداً في الجزء الجبلي من قضاء عكا.

ومن الواضح ان حداد قد استفاد من تجربة كتاب «... ترمسعيا»، وغيره من الكتب التي تناولت التـراث الشعبي الفلسطيني، خاصة في تقسيم فصول دراسته، وإن كان لم يعتمد التقسيمات ذاتها دائمـاً، وكـذلك في المقارنة بين أوجه الشبه في الحياة الشعبية في كل من القريتين، كما فعل في الفصل المخصص للأمثال الشعبية، حين ذكر أن مراجعاته «للامثال الشعبية التي وردت في عدة كتب وأبحاث، منها على سبيل المثال: ' التراث الفلسطيني والطبقات ' لعلي الخليل، و ' أغاني العمل والعمال في فلسطين ' لعلي الخليلي أيضاً، و ' الفنون الشعبية في فلسطين ' ليسرى جوهرية عرنيطة، و ' دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني ـ قرية ترمسعيا ' ، و ' مدخل لدراسة الفولكلور ' لنبيل علقم، تبين لي أن أكثر من تسعين بالمائة من الأمثال التي ذكرت في هذه الدراسات هي الامثال نفسها التي كانت تردد في البصة، وقد يكون هناك تبديل قليل في بعض الالفاظ» (ص٢٠٧).

غير أن كتابه هذا يعتبر متميزاً من عدة نواح، هي:

أولاً: النموذج الذي تمثله قرية البصة من حيث الأديان والطوائف التي ينتمي اليها أبناؤها، فهم ينقسمون الى «شيعة وسنة وكاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت» (ص ١٣٠).

ثانياً: «ان البصة بالذات نموذج للقرى التي اقتلع سكانها منها، وأصبحوا مشردين في أربع رياح الأرض، كما أن معالم البلدة قد أزيلت، ولم يبق منها سوى المعابد الدينية المتداعية» (ص ١٨).

ثالثاً: ينتمي المؤلف، نفسه، الى القرية نفسها، فهو على معرفة عيانية بالحياة فيها قبل النكبة، وعلى تماس مع اللاجئين منها الى لبنان (ومعظم ابنائها لجأوا الى لبنان)، مما أتاح له «الافادة من مجموعات من أهالي البصة المسنين الذين لا يزالون على قيد الحياة، من كلا الجنسين، ومن كل طوائف سكانها، واستقاء المعلومات منهم، وذلك بشكل جماعي أحيانا وافرادي أحيانا اخرى، ومقابلة المعلومات ، بعضها ببعض، والتدقيق فيها، والتأكد من صحتها» (ص ١٨).

وهذه الميزات مكنت حداد من رسم لوحة غنية بالتفاصيل الدقيقة والوافية للحياة الشعبية في البصة، عبر الفصول العشرة التي قسّم اليها دراسته:

البصة وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية

تقع البصة في أقصى شمال غرب فلسطين، وهي آخر بلدة في المنطقة الحدودية مع لبنان، ولذا تتصل أراضيها بالاراضي اللبنانية. وتبلغ مساحتها المبنية ١٣٢ دونماً، ومساحة أراضيها ٢٩٥٣٥ دونماً، يزرع جزء منها زيتوناً وبرتقالاً وموزاً، وغيرها من المحاصيل الزراعية. وقد بلغ عدد سكانها العام ١٩٣١ نحو ١٩٤٨ نسمة، يسكنون ٤٧٩ بيتاً، ويتبعها ١٦٧ بدوياً لهم ٩٥ بيتاً في الجوار. وارتفع عدد السكان الى ٢٩٥٠ العام ١٩٤٥، ووصل العام ١٩٤٨ ـ حسب التقديرات ـ الى أربعة آلاف نسمة.